الفصل الثالث

سياق التصوير في المستوى الذهني

☒ سياق تصوير مشهد أهل الكهف وحالهم:

توصف بعض السياقات التصويرية بأنّ فيها مجالاً واسعاً يتيح إعمال العقل والتأمل في مضامينها التعبيرية وبنائها الأسلوبي، ويفرض المكان جدلية واسعة في عملية البناء السردي لعملية التصوير كون المكان هو «الوعاء الحامل للأحداث، ونقطة سير الشخصيات، فلا يقوم حدث أو يتطور أو تتحرك شخصية معينة إلاّ داخل مكان محدد»[1]، ولكونه الوعاء الذي تتجسد فيه الأحداث وتبرز أبعادها الدلالية، فيتنج العقل المعاني المضمرة وراء تلك الإحداث على تنوعها، ومن المشاهد التي اشتملت على هذه الخصوصية الدلالية في التصوير القرآني، مشهد أهل الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: ١٨].

يمثل قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ ﴾ حكاية حدث ماضية، وحصولها يمثل لقطة تصور أحوالهم التي تبث في المتلقي في حالة من الرعب والخوف الذي انتهى به إلى فرار؛ لأنّهم صاروا «في حالة تشبه حال اليقظة، وتخالف حال النوم»[2]، الأمر الذي لا يجعل المتلقي يعدهم أمواتا، والفعل ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾، يفسح للذهن مساحة واسعة في مدارك الصورة وفهم أبعادها، فوجودهم بهيئة الأموات داخل الكهف يثير مسألة عدم تأكل أجسامهم، ووجودهم أحياء يثير مسألة الكيفية التي حفظت بها أرواحهم

(١) بناء المكان الدنيوي في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه): ٢٣١.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/٢٨٠.

طوال هذه الفترة، لذا كان من دقَّة التعبير القرآني أنَّه عبرَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَيْقَاظًا﴾، للدلالة على أنهم أحياء، يسبقه الفعل ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لتأكيد الدلالة على أنهم أحياء ولكن ليس الحياة التي فيها الحركة الحسية المعهودة عند الأحياء، والحِسْبَان: «أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظنّ، لكن الظنّ أن يخطر النقيضين بباله فيغلّب أحدهما على الآخر»[1]، فدل به على امتناع وصفهم أمواتا، لذا ناسب ذلك أن يصفهم بأنهم ﴿رُقُودٌ﴾ ولم يقل أمواتاً، والرقد: المستطاب من النّوم القليل، يقال: رَقَدَ رُقُوداً، فهو رَاقِدٌ، والجمع الرُّقُودُ، وإنَّما وصفهم بالرّقود -مع كثرة منامهم- اعتباراً بحال الموت، وذاك أنَّه أعتقد فيهم أنهم أموات، فكان ذلك النوم قليلا في جنب الموت[2]، ذُكر أنَّه لما ضرب الله على آذانهم وناموا أبقى على أعينهم مُفتّحة، فالذي يراهم يحسبهم أيقاظا وهم في الحقيقة رقود، وأنَّ الله يقلبهم كي لا تبلى أجسادهم، لطول مدة لبثهم، وقد كانوا يقلبون مرتين في السنة، ومنهم من يقول إنَّهم يقلبون مرة كل عام أنّهم كانوا يُقلّبون مرّة أو مرتين في كلّ عامٍ، وفائدة ذلك هو الحفاظ على سلامة الجسد من التآكل[3]، كما ذكر القرطبي: «كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فكذلك الرائي يحسبهم أيقاظا، وقيل: تحسبهم أيقاظاً لكثرة تقلبهم كالمستيقظ في مضجعه، و﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع يقظ ويقظان، وهو المنتبه[4].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة (حسب).

(٢) ينظر: المصدر نفسه، مادة (رقد).

(٣) ينظر: النكت والعيون: ٢٩١/٣، وفتح القدير: ٣٨٢/٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٦٩-٣٧٠.

إننا وأمام ما ذُكر لا نسلم على كل حال بجميع ما ذُكر ولا نسلم له ولا تكتفي به، لأنَّ البيان السردي يبقى أولاً وأخراً حدث إعجازي غيبي، ومن يبقى قابل لمستخلصات تأويلية ينتجها القارئ أو المستمع غير منحصر في اليقين بأن السبب الرئيس كامن في ظاهرة واحدة، بل يظل مرشحاً لأكثر من استخلاص، ولعل أوضح استخلاص في هذا الصدد هو أنَّ الظاهرة المذكورة قد تكون مرتبطة بأسباب يعجز الذهن عن إدراكها والعلم عن معرفتها، لكننا في الأحوال جميعاً لا نعدم الظفر بإمتاع فكري وإعجازي حينما ننشط في استخلاص الأسباب الكامنة وراء التقلّب، دون أن يعني ذلك ضرورة الوصول إلى نتائج واقعية؛ لأنَّ مجرد تقلب الفكر في هذه الممارسة له إمتاعه الفكري من حيث إثراء الذهن وإشباع الحاسة الفكرية[1].

ومما يلاحظ هنا أنَّ هذا العرض في السرد الوصفي قد اشتمل على أسلوبية التقابل في بيان أحولهم وذلك في: (أَيْقَاظًا- رُقُودٌ)، وهذا التقابل يحيل الذهن إلى تأملات إعجازية تعرف بالقدرة التي حفظت تلك الأجسام من التأكل وبقاء الروح نفاذة فيها طوال تلك المدة التي قضوها هؤلاء الفتية في الكهف وانعدام مسببات العيش ومتطلبات البقاء على قيد الحياة، فالمتأمل يضطر إلى ممارسة عمليات فكرية شتى حتى يصل إلى استخلاصٍ ما، فمن المحتمل أن يكونوا مفتوحي العيون في هيئة النائم، ومن الممكن أن يمارسوا -وهم ممدّدون- بعض الممارسات التي توهم المشاهد بأنَّهم إيقاظ، ومن الممكن أن يصدر عنهم نشاط لفظي يحقق الإيهام ذاته بأنهم أيقاظ، ولكنهم في الحقيقة نُوّم[2]، ولعل السبب في ذلك قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ

(١) ينظر: قصص القرآن دلالياً وجمالياً: ١/٣٥٥-٣٤٦.

(٢) ينظر: سورة الكهف دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير): ٣٧.

ٱلشِّمَالِ ﴾، الذي يفهم أنّهم كانوا في حالة حياة مستمرة مدّة وجودهم في الكهف، ومظهر التقليب يسهم في خلق جو التخييل فيقرب الصورة للمتلقي وينقله إلى زمن الحدث فيتابعه وكأنّه يشاهده عن قرب أو ساعة سرده، والأصل في التقليب: «تحويل الشيء عن وجهه»[1]، وهو هنا يجسد العرض الحركي لهم فيبرزهم ينتقلون من جانب لآخر كما يتقلب النائم، وهذا المظهر يصرف الذهن إلى التأمل في مظهر الحياة الذي يقطع أنهم كانوا أمواتاً، في لقطة تعرف بمدى العناية التي تكفل الله تعالى بها لهؤلاء في حدث أعجازي خارق.

ثم ينتقل السرد بنا إلى لقطة تصويرية جديدة وهي قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾، وهذه اللقطة تشكل خطابا عاما، فيدخل ضمنه المتلقي العام والمتلقي المباشر، كما إنَّ فعل (الاطِّلاع) هو مفترض، ومجيئه مستنداً إلى أسلوب الشرط يقتضي حيت يتحقق فعل الاطلاع، والاطّلاع يكون إذا أقبلت إلى الشيء تراه ويراك[2]، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٧]، والظاهر إنَّ مجيء هذا الفعل يحدث أثراً بيانياً في النفس، وترك أثر الرهبة وشعور الخوف حين يناظرهم الرائي، وقد علل المفسرون سبب ذلك، فقيل لطول أظافرهم وشعورهم وعِظم أجرامهم، وقيل لوحشة مكانهم[3]، على أنّنا لا نسلّم لهذه التخريجات ولا نتركها جانباً، غير أننا نقول: إنَّ مظهر التقلّب هو مظهر

---

(١) لسان العرب: مادة (قلب).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (طلع).

(٣) ينظر: تفسير الكشاف: ٦٦٢/٢.

إعجازي ينأى الذهن عن إدراكه أو إدراك تعليله، وإن الذي تسبب بالفرار هو ذلك الوضع المعجز والمهابة التي أنيطت لهم فجعلت من يراهم يخافهم، لأنَّهم في حالة لا يبدون أمواتاً، فقد ذُكِرَ أنّ أعينهم كانت مفتّحة وهم نيّام ثمّ تطبق[1]، لاسيما وأنَّ مظاهر الصور وأقطابها: (أَيْقَـاظًا- رُقُودٌ- بَـاسِطٌ) جاءت بالوصف الذي يقتضي ثبوت تلك الهيئات واستمرارهم عليها، فالتعبير يبرز الحالة النفسية في المتلقي، تلك المظاهر تحرّك الملكة الفكرية، وتسبر أغوار النفس نحو انفعالات وجدانية لا يعلم حقيقتها إلاّ المطّلع على تلك الصورة، حتى أحدثت عنصر التشويق لرؤيتها، وهذا منسجم تماما والأغراض الدينيّة في بث المعاني العقدية وعرضها ماثلة من خلال السرد القصصي، والمعاني إذا أُبرزت في معرض التمثيل تضاعفت قِواها في تحريك النّفوس وإثارتها نحوها[2]، فالمشهد في النهاية هو «مشهدٌ تصويريٌ عجيب، يَنقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف كما يلتقطها شريط متحرك، والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنّها متعمِّدة»[3]، وذلك يعني شمولية العناية من قبل الله تعالى لمن جعل الإيمان به قضيّته في هذه الحياة، وقد اتضح لنا من خلال السرد البياني في السياق قدرة الله تعالى الخارقة، وإعجازه في تسخير موجودات هذا الكون لتكفل أولياءه، وكان ذلك الحال مدرك بالعين قريب من الحس، وقد أسهم في جعل المتلقي في حالة ديمومة واستمرارية تستخلص الدلالات التي يثيرها التعبير التصويري فتثري الذهن وتحيل الأعجاز إلى القدرة الخارقة ونفاذها إلى الموجودات عبر مظهر الإحياء والإماتة.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ١٠٢/٢١.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة: ١١٥.

(٣) في ظلال القرآن: مج٤/ ج٢٢٦٣/١٥.

☒ سياق تصوير الموج كالجبال:

ولو تأملنا في مشهد الطوفان في قصة نوح فإننا سنجد أنَّ الحدث المعجز يمتثل أمام العين فيخاطب الذهن في لتملي الإعجاز الحاصل وبيان القدرة الإلهية في تكوين الماء وسير الفلك فيها وإغراق الكافرين، يقول تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

يبدأ المشهد بالتعريف بالسفينة حال جريانها ونوح عليه السلام ومن أُمر بحملهم راكبون فيها، والجريان صفة الثابتة للسفن تعبيرا عن الحركة، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، والمراد بالجواري: « السفن العظيمة التي تسع ناساً كثيرين»[1]، فسميت جواري اشتقاقا من وصفها الحركي، إذ الأصل في الجَرْي: «المرّ السريع، وأصله كمرّ الماء، ولما يجري بجريه، يقال: جَرَى يَجْرِي جِرْيَة وجَرَيَاناً»[2]، فالسياق يصف سرعة المرور وقوة الحركة، ومجيء اللفظ بالمضارع يسهم في استحضار الصورة الحركية وبيان تلك سرعة المهولة حتى بدت السفينة لا يعيقها شيء أو يحد من حركتها، فهي صورة تخاطب الخيال لتصوّرها في الذهن؛ فالصورة مبهمة بالنسبة للحواس والحدث من مشاهد الغيب، غير أن الحركة فيها

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٥/١٠٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة (جرى).

تنتجها الخيال عملية التخييل الذهني لتكوين الانطباع نحو طبيعة هذه السفينة والهيئة التي تجري بها في ذلك الطوفان العظيم.

إن مشهد الطوفان هو حدث أعجازي، والقرآن الكريم يصف طريقة حصوله وكيفية تجمع الماء بهذا الشكل بقوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١-١٢]، فالماء تسببت موجودات السماء والأرض في تكوين حجمه ثم تهيأت له مسالك الحركة فجرى حتّى طغى، فيدرك الذهن أن السفينة تسير في مجال مائي واسع، ليس في بحرٍ أو محيطٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١]، فعبر بالطغيان استعارة، فهو في أصل اللغة يقال عند على مجاوزة الحد في الفعل[1]، والصورة الاستعارية توحي بمجاوزة الماء الحدّ في علوّه وعتوّه، فالتعبير يخرج إلى المجاز من خلال «تشبيه الماء في طموّ أمواجه، وارتفاع أثباجه بحال الرجل الطاغي، الذي علاً متجبراً، وشمخ متكبراً، وقال بعضهم: معنى طغى الماء أي: كثر على خزّانه، فلم يضبطوا مقدار ما خرج منه كثرة، لأنَّ للماء خزنة، وللرياح خزنة من الملائكة عليهم السلام، يخرجون منهما على قدر ما يراه اللّه سبحانه من مصالح العباد، ومنافع البلاد، على ما وردت به الآثار»[2]، والجارية هي السفينة على ما مر بنا آنفا، والموج هو «ما ارتفع من فوق الماء»[3]، أي: كميات الماء التي تتصاعد على سطح الماء، وهو اضطرابٌ ناتجٌ عن تزايد المياه، ونتيجةً لشدّة

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (طغى).
(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٣٤٤/٢.
(٣) لسان العرب: مادة (موج).

الرياح، كقول الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، أي: يختلط ويضطرب تشبيهاً باضطراب ماء البحر[١].

ويذكر أنّ الحركة الموجيّة في البحر ميكانيكيّة تنتج عن مصدر الطاقّة المضطرب (البحر) ثمّ تنتشر في وسطه المائع (الماء) فتكون حركة الأجسام التي على سطحه (اهتزازية)، أي: مرنة، ثمّ ينتقل ذلك الجسم من مكان لآخر بحسب قوّة ذلك الوسط وانزياحه عن موضع استقراره، مما يعني أنّ الحركة ليست (ذاتية) والمتحرك فيها بمثابة المرغم، والملفت للنظر أنّ حركة الماء (الوسط) ليست كليّة باتّجاه الاضطراب، إنّما هي جزئية تهتزّ على مسارات محدّدة، وهذا يدلّ على أنّ زمن الحركة في ذلك المسار متغيّر؛ لأنّه متّصل بالموجة لا بسطح الماء.

ثم يصور السياق مبيناً طبيعة ذلك الجريان ويعبِّر عن خصوصية هذه السفينة، يقول تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ وهذا التصوير يخاطب ذهن المتلقي لمعرفة هذه السفينة وطبيعة حركتها وطبيعة المجال الذي تتحرك فيه. فيفهم أنّ لذلك الفيضان قوة جارفة حتى للجبال مدمر للموجودات الطبيعة الأخرى، لذلك جاءت دقة التعبير لتبين أنّها نسب موجية معروفة، فكل «موجة من الطوفان كالجبال في تراكمها وارتفاعها»[٢]، ما يوحي بأنّها كانت تجري في وسط مضغوط (غير مستقر)، تسبب في هذا الارتفاع والطول الموجي، فهو جريان معنف مخيف يبث حالة الخوف والرعب في امتداد مدمر وفي تموج غير مستقر وغير انسيابي؛ فتداخلت

---

(١) ينظر: روح المعاني: ١٦/٤٣.

(٢) البحر المديد: ٣/٢١٥.

المسارات الحركية للأمواج مع المسارات الحركية في تلك السفينة فصارت في مد وجذب حتى أحاطت بها جانبياً فصارت كل موجة كالجبل الواحد وصارت السفينة تجري وسط تلك الأمواج، لذا قد استند التصوير إلى فاعلية الأثر التشبيهي في التعبير عن هذا الحدث المعجز، فالأثر البياني في التشبيه -تشبيه الموج الواحد بالجبل- لا يجعل للجبل أيّ قيمةٍ أمام هذه السفينة من خلال تشبيه الموجة به، والحركة فيها «تُنسينا رسوّ الجبل ورسوخه فلا نتصور غير عنف حركة الموج وضخامة حجمه»[1]، وهذا يعني أنّ السفينة كانت معدَّة على نظام مُحكَم لا تؤثر فيها الأمواج، وأنّها مُعدَّة للحياة والنجاة لا لمجرد رحلة أو لمجرد انتقال من مكان إلى مكان آخر؛ كما أنَّها تحمل أصنافاً كثير ومتنوعة من الخلق الذين قُدِّر لهم النجاة، والفيضان هو وحده الذي أتاح لها الحركة والجري باسم الله.

ومما يستنتجه الذهن أنَّ هذه السفينة كانت في سرعة حركية تتجاوز المدة الحسابية في الزمن، فأنت تلحظ التحول في البنية السياقية من زمن السرد الحاضر ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ إلى زمن وقوع الحدث الماضي ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ ما يعني أنّ الحوار كان قبل اشتداد الطوفان، مع أنّ حركية المشهد «لا تحدّد زمن الطوفان ولا مدّة الكارثة »[2]، وهذا التحوّل له فاعلية في إبراز صفة التداخل الزمني في الحدث، ليشير إلى أنّ زمن السرد (زمن توليفي) يجمع بين لقطات المشهد، وإنّ سرعة جريان السفينة قد اختزلت قيمة الزمن كما اختزل الطوفان قيمة المكان، فليس لهما أثرٌ فاعلٌ في الحركة.

---

(١) جماليات الحركة في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه): ١١٠.

(٢) الإنتاج الدلالي للخطاب التفسيري للقصص القرآني (أطروحة دكتوراه): ٣٩٤.

كما ويلحظ أن الحوار بين نوح عليه السلام وابنه يزيد المشهد في تنوع الدلالات حين يبرز المشاعر ومعاني التحنن في الموقف المهول، فالحوار يجسّد حنان الأبوة المُقابَل بالعقوق والعصيان، وذلك أدلّ على زيادة هيجان شعور الحبّ وشدّة التحنّن من جانب الوالد الرؤوف[1]، غير أنَّ ذلك الشعور يقف خلفه الحرص على النجاة العقدية وليس حصراً للنجاة من الغرق، فقد ذكر له الكفر الذي دل عليه بالغرق: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والمعنى: أنّ «نهاية الغرق الموت، أمّا نهاية الكفر فغضب الله وعقابه الخلود في النار»[2]، فالدّعوة كانت للنجاة من الكفر، غير أنَّ الابن قابل ذلك العهد بإصراره على الضلال معزل الكفر: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، وهذه الإجابة كانت مدعاة للسخرية، حين جعل الجبل يتسبب بالنجاة في حين أنّ الموجة الواحدة قد أغرقت الجبال المتعددة في ذلك الفيضان، وهكذا يخيم الصمت على هذا المشهد، بعد هذه المتواليات من الأحداث فينتهي بنجاة نوح عليه السلام ومن معه وغرق العصاة ومن معهم وكذلك ابنه العاق في حدث أعجازي هائل.

☒ سياق تصوير إغواء إبليس لابن آدم:

تتشكل بعض الصور في التعبير القرآني وفق مستويات ذهنية ومرجعيات فكرية تخاطب في نظمها السياقي قنوات التخييل، فهي غير مرئيّة على مستوى التلقي، فلا يمكن أن تدرك بالحواس، إنَّما يدركها التصور الذهني، فتسهم الوحدات البنائية في سياقاتها التصويرية بإيجاد بؤر دلالية جديدة من شأنها إثراء

(١) ينظر: الحوار في القرآن الكريم: ١٨٨.

(٢) جماليات التكثيف في القصص القرآني (رسالة ماجستير): ٢٥٣.

الدلالة السياقية العامة، إذ أنَّها تكشف عما هو أبعد مما هو في ظاهر اللفظ نفسه عبر رابطة التداعي السياقي بين علاقات الحضور والغياب، لأنَّ اللغة التصويرية أصبحت فاعلية «تحدد الكيفيّة التي بها ندرك الواقع ونتصوره»[1]، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٨].

المشهد مقتطع من قصة طويلة تجسد امتناع إبليس من الاستجابة لأمر ربه تعالى في السجود لأدم، وهذا الامتناع كان يقف خلفه معنى الأفضلية والخيرية من حيث التكوين والمكانة من قبل إبليس، وعلى ذلك تكونت علاقة ضدية بين المؤمن وبين إبليس وبشكل أزلي دائم، ومن المتوقع حصول توجهات عدائية من قبل الشخصية العدائية المتمثلة بإبليس كيدا وإضلالا ضد الشخصية المسالمة المتمثلة بالمؤمن في ضِل الصراع المستمر بين الطرفين على المدى الطويل، لاسيّما وأن العدائية هنا تمثل جدلية الوجود البشري والتوجه العقدي وإحداث المعوقات في المسار العبودي للمؤمن عبر إبليس.

يبدأ السياق بلقطة التهيؤ والتحشيد المستقبلي لخوض غمار الصراع، ففي قوله تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ استحضار القدرات وإبراز مواطن القوة، مع الإصرار على غواية بني أدم وإيقاعهم في الهلاك كما هلك هو، أي: «لأجلسن لبني آدم صراطك المستقيم، يعني: طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه، وإنما معنى الكلام: لأصدَّن بني آدم عن

(١) الإشارة الجمالية في المثل القرآني: ٢٦.

عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني، ولأضلنهم كما أضللتني»[1]، والأصل في ذلك هو الغواية لإفساد العيش، يقال غوى الرجل يغوى غياً إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه ومنه، وغرض اللعين بهذا أخذ ثأره منهم؛ لأنَّه لما طُرد ومُقت بسببهم على ما تقدم أحب أن ينتقم منهم أخذاً بالثأر، فجهد في إغوائهم وقعد لهم حتى يفسدوا بسببه كما فسد، حين امتنع السجود لآدم، فيضلَّلهم الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل إلى الجنة فلا يدخلوها[2]، جاء في الحديث الشريف: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ، فَقَالَ لَهُ: تَسْلَمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ، فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ، فَغَفَرَ لَهُ، فقعد له لطريق الْهِجْرَةِ فَقَالَ لَهُ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ»، فَقَالَ لَهُ: تُجَاهِدُ وَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتَقْتُلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهِدِ»[3].

إذن فالتعبير بفعل القعود يحمل دلالة التفرغ التام والترصد عن قرب ومتابعة مستمرة من قبل الشيطان، والملاحظ أنه جاء في سياق البنية التأكيدية في الشروع به، فالفعل يرسم للعبادات رسماً مكانياً حسيّا يتأتى من خلاله التربّص والترصّد، ولذلك رشح له باستعارة الصراط (المكان) ليدل على ملازمته الترصد بالإفادة من أسلوب الحوار[4] إمعاناً بالتحدي في تعدد سبل إضلاله لهم.

---

(١) جامع البيان: ٣٣٤/١٢.

(٢) ينظر: فتح البيان: ٣١٤/٤.

(٣) صحيح ابن حبان: باب (ذكر إيجاب الجنة للمهاجر والغازي في أي حالة أدركتهما المنية في قصدها) برقم: (٤٥٩٣).

(٤) ينظر: الحوار في القرآن الكريم: ٢٥٨.

ثم يرسم إبليس خطوط الصراع ويفصح عن مسالكه التي ينطلق من خلالها نحو عدوه، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾، وهو بذلك ينتقل بالصراع من إطار الأعلام وابيان العداوة إلى إطاره الميداني التطبيقي، والسياق يوحي بأنَّه مزود بقدرات ممنوحة له يزيدها كثرة السبل التي يأتي منها بتدبير وانتظام وإحكام فيتجه نحو هدفه الذي تعددت سبل الوصول إليه؛ لأنّ الهدف يتحرك في مساحة تقتضي ظهوره أمامه، أمّا هيئة القعود إنما تقتضي الخفاء والترصد لتحقيق السيطرة[1]، يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍۚ ﴾ [التوبة: ٥]، أي: «أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في البحر: وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال»[2]، ويبدو أنَّ إبليس باختياره هذا النهج لمسك زمام القوة فيصيب عدوه بحسب ما أعطي من طبيعة التكوين الخلقي.

وبعد هذا البيان يرد قوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم ﴾، ليشكل الشروع بالفعل والإقدام بعد التخطيط، فيدل على والأعداد المسبق والاستنفار تام، لأنَّ فعل الإتيان إنما «يقال للمجيء بالذات وبالأمر التدبير»[3]، بالإفادة من أسلوب العطف التراتبي، فقد دلّت (ثُمَّ) «للترتيب الرتبي، وهو التدرج في الأخبار إلى

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة، (قعد).

(٢) صفوة التفاسير: ١/٤٨٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن: مادة (أتى).

خبر أهم؛ لأنَّ مضمون الجملة المعطوفة أوقع في غرض الكلام من مضمون الجملة المعطوف عليها؛ لأنَّ الجملة الأولى أفادت الترصد للبشر بالإغواء، والجملة المعطوفة أفادت التهجم عليهم بشتى الوسائل»[1]، وهنا يظهر إبليس مزودا بقوة هجومية متجهة للأمام ولذلك آثر التعبير بفعل الإتيان على أفعال القدوم الأخرى، لأنَّ «الآتي يكون عارفاً لمكان ذهابه فيسير إلى هدفه بنوع من العلم والإدراك»[2].

إنَّ هذا السياق التصويري يقدم للفكر مادة خضبة للتأمل فيها، ذات مرجعيّة فتلتقي فاعلية التخييل وإشغال الفكر مع الأثر البياني في فعل القدم، إذا ما علمنا أنَّ «الفكر في الصورة دعمٌ كبيرٌ لها، وتثبيت لتأثيرها في المتلقي»[3]، وهذا القدوم مرتبط بجهات اختارها إبليس وفق قدراته، وهي (أمام، خلف، يمين، شمال) وقد علل بعضهم إنَّ المراد هو المواجهة العدائية، والمعنى: «لأسوّلنَّ لهم ولأضلنَّهم بقدر الإمكان إلا أنَّه شبَّه حال تسويله ووسوسته لهم كذلك بحال إتيان العدو لمن يعاديه من أي جهة أمكنته، ولذا لم يذكر الفوق والتحت؛ إذ لا إتيان منهما»[4]؛ وذكر بعضهم إنَّه اقتصر على هذه الجهات لأنَّهما «ليستا بمقر شيء من القوى المفسدة لمصالح السعادة»[5]؛ ولذا خص الأمام والخلف بـــ(من) الدالّة على المواجهة، وخُصَّ اليمين والشمال بـــ(عن) الدالّة

---

(١) التحرير والتنوير: ٤٩/٨.

(٢) أفعال الحركة الكلية الانتقالية للإنسان في القرآن الكري (رسالة ماجستير): ٨.

(٣) جمالية الصورة في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر: ٩٧، وينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ٩٥.

(٤) روح المعاني: ٩٥/٨.

(٥) البحر المحيط: ٢٧٧/٤.

على المجاوزة، من قولهم أجلسه عن يمينه أي عليها[1]، وقد اكتفى غيرهم بالقول إنَّ ذلك من قبيل التمثيل[2]، وكل ذلك مُمكِنُ إذا تأملنا في الأبعاد الدلالية التي يوحي بها السياق، فإبليس منح القدرة في الوسوسة والإضلال، ويمكن عرض ذلك تمثيلا مبالغة في وصف هيمنته وبيان سلطانه الممنوح من الله تعالى، جاء في الحديث الشريف: «إنَّ الشّيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتّى يحضره عند طعامه»[3]، وأيضاً قد ورد في حديث نبوي آخر «إنَّ الشّيطان يجري مجرى الدم من الإنسان»[4]، إلاّ أنَّه يبقى ذلك كله متروك للتصوُرات والتخيلات الذهنية لرصد الإقدام وإدراكه مسالكه تبعا للطبيعة الخلقية التي خلق بها إبليس، لاسيما وأن الصورة المعروضة هنا هي من مشاهد العالم الغيبي فيذكرها القرآن الكريم تحذيرا ووعظا بيانا وتوجيها.

☒ سياق تصوير حالة المؤمن والكافر في سعيهما للدنيا:

تُقدِّم بعض السياقات القرآنية تراكيب تصورية تكون أنسقتها البنائية مدعاة لأن يقف المتلقي متأملاً عند بنيتها اللغوية والأسلوبية، وتقليب الصورة في الذهن للتعرف على مضامينها الدلالية لاستجلاء المعاني الخافية فيها، يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

يتجسد في هذا التمثيل حالين مختلفين، حال المؤمن وحال الكافر في سعيهما في الحياة الدنيا قال الآلوسي: «مثلٌ ضُرِب للمشرك والموحد توضيحاً

---

(١) ينظر: الكشاف: ٤٣٠/٢.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٩٥/٨، والتحرير والتنوير: ٤٩/٨.

(٣) صحيح مسلم: باب استحباب لعق الأصابع، الحديث برقم: (٢٠٣٣).

(٤) صحيح ابن حبان: باب الاعتكاف، الحديث برقم: (٣٦٧١).

لحاليهما في الدنيا وتحقيقا لشأن مذهبيهما والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حال الكفرة وخرورهم في مهاوي الغرور»[1]، فالمؤمن كمن يمشي في طريق واضح المعالم بيِّن السُبل، والكافر كمن يمشي في متاهات وسبل متعرجة، فتمثل الأول لمراد الله تعالى وضل الآخر عن هذا، قال المفسرون: «هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة، لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه، والمؤمن كالرجل السويّ الصحيح البصر، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمن من الخبط والعثار، هذا مثلهما في الدنيا، وكذلك يكون حالهما في الآخرة، المؤمن يحشر يمشي سوياً على صراطٍ مستقيم، والكافر يحشر يمشي على وجهه إلى دركات الجحيم قال قتادة: الكافر أكبَّ على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله على الطريق السويّ يوم القيامة وقال ابن عباس: هو مثلٌ لمن سلك طريق الضلالة ولمن سلك طريق الهدى»[2]، فصار لكلا الطرفين بعدا عقديا مختلفا، فالمثل يشتمل على مضامين كنائية يعبر عنها بالمظاهر المحسوسة لمخاطبة ذهن المتلقي لكي يتأمل المعنى ويدرك مقاصده، فيترك للفهم السليم مساحة واسعة لإدراك الدلالة الكامنة في السياق الذي آثار التمثيل في عرض المعنى.

يستند التصوير إلى أسلوبي المقابلة بين الطرفين والاستفهام مبتدئا بالأخير، ليكونا بنية متلازمة تحقق خطاباً مباشراً للمتلقي للتأمل في ما هو معروض أمامه، فورود الهمز مع (أم) المعادلة تحقق حضوراً ذهنياً للمقارنة بين

---

(١) روح المعاني: ١٩/٢٩.

(٢) صفوة التفاسير: ٣٩٦/٣.

طرفين مختلفين في الحال العام، فذكر مسلك الكافر بأنه: ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وعرّض بمسلك المؤمن فهو: ﴿يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والمعنى الذي يكشف عنه هذا التركيب «هل من يمشي منكساً رأسه، لا يرى طريقه فهو يخبط خبط عشواءً، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيخرّ لوجهه، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، ويرى طريقه ولا يتعثر في خطواته، لأنَّه يسير على طريق بيّن واضح»[1]، فدلالة الحركة معاكسة للمعهود، ولكونها كذلك لم تكن على صراط مستقيم.

يصف التعبير حال الكافر بأنَّه ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾، أي: «داخلاً بنفسه في مكبٍّ وصارا إليه، وهو السقوط على وجهه وهو كناية عن السير على رسم مجهول وأثر معوج معلول، على غيره عادة العقلاء لخلل في أعضائه، واضطراب في عقله ورأيه، فهو كل حين يعثر فيخر على وجهه، لأنَّه لعدم نظره يمشي في أصعب الأماكن لإمالة الهوى له عن المنهج المسلوك، وغلبة الجهل عليه فهو بحيث لا يكون تكرار المشاق عليه زاجراً له عن السبب الموقع له فيه، ولم يسم ﷻ ممشاه طريقاً؛ لأنَّه لا يستحق ذلك»[2]، والمكب أسم فاعل وهو الساقط على وجهه، يقال أكبَّ خَرَّ على وجهه، وهو من باب الأفعال والمشهور أنَّه لازم وثلاثيه متعد فيقال كبّه الله تعالى فأكبَّ وقد جاء ذلك على خلاف القياس»[3]، وعلّق الزمخشري على هذا التركيب الوصفي بقوله: «قلت ما معنى يَمْشِى مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ؟ وكيف قابل يَمْشِى

(١) صفوة التفاسير: ٣٩٦/٣.

(٢) نظم الدرر: ٨٢/٨.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٢٠/٢٩.

سَوِيّاً عَلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ؟، قلت: معناه: يمشي معتسفاً في مكان معتاد غير مستو فيه انخفاض وارتفاع، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه مُنكبا، فحاله نقيض حال من يمشي سوياً، أي: قائماً سالماً من العثور والخرور، أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو، ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف، فلا يزال ينكب على وجهه، وأنَّه ليس كالرجال السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له»[1]، وهذا الوصف الفعلي أما أن يكون اختيارياً، أي: إنَّه يمشي على وجهه وليس على رجليه بالفعل الخلقي أو التكوين الجسماني، وإما أن تكون حالة تعتريه فيتحول متعثراً في طريقه فينكب على وجهه، ثم يعود ثم يعثر مرة أخرى، وهي هيئة ساخرة فيها عناء ومشقة، ولا تنتهي بحال إلى هدى ولا تصل به إلى مراد، على عكس من يمشي سوياً مستقيماً في مسلك لا تعرج فيه ولا عوج، فلا يعثر ولا ينكب فيسلكه إلى مقصده من غير تعب ولا عناء، فالسياق يعرض مشهدين يشتمل على دلالة الترغيب والترهيب حين يعرضهما على طريقة التمثيل الحسي ليخاطب بهما ذهن لمتلقي، فيعرِّف بالسعي الذي يحقق الفوز الخالد والسعي الذي يحقق الشقاء البائس، يقول سيد قطب: «الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته، لأنَّه يعترضها في سيره، ويتخذ له مساراً غير مسارها، وطريقا غير طريقها، فهو أبدا في تعثر، وأبدا في عناء، وأبداً في ضلال. والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله، الممتع بهداه، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور، الذي

(١) الكشاف: ٤/٥٨٧.

يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد. وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء»[1]، وقد تلمس الفخر الرازي لهذا السياق الوصفي دلالات يخرج إليها المعنى فقال: «إنَّ المعنى الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض، فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكبا، فحالُهُ نقيض حال من يمشي سوياً، أي: قائماً سوياً من العثور والخرور، **وثانيهما**: أَنَّ المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين، **وثالثهما**: أَنَّ الأعمى الذي لا يهتدي إلى طريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصرِ الماشي في الطريق المعلوم»[2].

إنَّ السياق يرمي إلى تحريك الذهن عند المتلقي من خلال عرض هاتين الحالتين أمامه تاركاً إليه الوصول إلى نتائج ذلك المشي، ما يعني أن كلا الصورتين تحمل في طياتها أبعاداً ترغيبية وأخرى تنفيرية، ترغب بالهداية التي هي المشي على صراط مستقيم، وتنفر من الضلال والهلاك الذي هو المشي بالمعاكسة، وهذه الهيئة تشتمل على دلالات المعاكسة الفطرية التي تستجيب لداع الخير وتنصاع لأعمال البر والسير على مسلك الهدى والرشاد، لذا فالسياق يأخذ الصورة ليعرضها في ذهن المتلقي لتأخذ أبعادها الكاملة هناك، فدلالة الاستفهام ليست لإرادة الإجابة «إنَّما هو سؤال التقرير والإيجاب ويتوارى السؤال والجواب ليتراءى للقلب هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك، مشهد جماعة يمشون على وجوههم، أو يتعثرون وينكبون على

---

(١) في ظلال القرآن: مج ٦/ج٣٠ /٣٦٤٤.

(٢) التفسير الكبير: ٣٠/٥٩٤.

وجوههم لا هدف لهم ولا طريق، ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات، مستقيمة الخطوات، في طريق مستقيم، لهدف مرسوم، إنَّه تجسيم الحقائق»[1]، وذلك عبَّر الفجوة التي يتركها الفعل ﴿أَهۡدَىٰٓ﴾ بين التركيب الاستفهامي، والفعل مأخوذ من الهدي، وهو معرفة الطريق، وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة فأيهم أشد هداية، أمّن يمشي دائماً مستمراً سوياً قائماً رافعاً رأسه ناصباً وجه سالماً شديد الاستواء، من العثار لأنَّه لانتصابه يبصر ما أمامه وما عن يمينه وما عن شماله على صراط طريق موطأ واسع مسلوك سهل قويم مستقيم في غاية القوم، لأنَّ الذي يمشي مكبّاً على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء، ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تلميح بحسب المقام، فالوصف البياني هنا من الاحتباك: فقد ذكر الكب أولاً دليلاً على ضده ثانياً، والمستقيم ثانياً دليلاً على المعوج أولاً، وسرّه أنَّه ذكر ما للمجرم وأسر ما للمسلم[2].

ويشار، إلى أن الصورة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ تشكل مضموناً يحيل إلى السخرية، فالمشي عادة يكون لحي متحرك غير أن ذكر المشي بطريقة مكبة على الوجه تحيلك إلى النعم من حُمر أو غنم أو بغال وما شاكل من الدواب، فهي تمشي ورأسها متجه إلى الأرض فحين يذكر الوجه المكبوب إلى الأرض في حالة المشي سرعان ما يستحضر الذهن هذه المخلوقات، غير أنَّ ورود (مَن) في السياق قد أحل المشي إلى عاقل والموصف هو إنسان فيفهم أنَّه حين التجأ إلى غير الله وصدَّ عن عبدته كن كتلك الأنعام مكبوبة الوجه على الأرض، وما تنطوي عليه هذه الصورة من معان نفسية وفكرية

---

(١) في ظلال القرآن: مج٣ /ج٣٠/٣٦٤٤.

(٢) ينظر: نظم الدرر: ٨٧/٨.

تعرف بالانغلاق مدارك الفهم الصحيح والسلوك السوي الذي اتَّصف به العقلاء وذوي التمييز، وهذا التعبير مشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية: ففيه «تشبيه لحال المشرك في تقسُّم أمره بين الآلهة طلباً للذي ينفعه منها الشاكّ في انتفاعه بها، بحال السائر قاصداً أرضاً معينة ليست لها طريق جادة فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلُغ إلى مقصده فيبقى حائراً متوسماً يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة. وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله: مكباً على وجهه بتشبيه حال المتحيّر المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض»[1]، وهذا تتكامل الصورة مستبينة كل إبعادها، و لم يبق إلا إثباتها في الذهن ليهتدي إلى ما ترغب فيه.

☒ سياق تصوير الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

يشتمل التعبير القرآني في سياقاته التصويرية على أنماط متنوعة من الأساليب البيانية والوصفية التي تخاطب المتلقي وتفسح للذهن مسالك جمالية عدّة تبرز القيم الدلالية الوظائف التي يشتمل عليها النظام التراكيب السياقية فيه، كتلك القيم التي تعرضها المظاهر المثلية في التعبير القرآني، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/٤٥.

ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

يُستهل التعبير السياقي هنا بالأسلوب الاستفهامي وما له من قيم بيانية في رسم أبعاد الصورة في الذهن وأيقاظ ملكة التفكّر لفهم ما بعده، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ وهذه العبارة تجعل الذهن يقظاً متنبهاً إلى ذلك المثل مستعدا لسماعة وأخذ العبرة منه، فهذا التركيب يمتاز بفاعلية الخطاب الذهني وتعديه بالمفرد إلى غيره أو حتى متلقيه المباشر، وأنت تلاحظ أن الكلام قد جاء مستنداً إلى سوق الاستفهام بالفعل الماضي الدال على الحاضر الآني والمستقبل القادم، ثم إقرانه بسوق المثل بالماضي، ليسهم في زيادة عنصر التشويق في السياق التصويري لمعرفة كوامنه وما يقف وراء الصورة المثلية من قيم تعبيرية هائلة، فلاستفهام جاء للإنكار وقد «نُزل المخاطب مترلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم، أو هو مستعمل في التعجيب من عدم العلم بذلك مع أنَّه مما تتوافر الدواعي على علمه، أو هو للتقرير، ومثله في التقرير كثير، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، والرؤية علمية معلّق فعلها عن العمل بما وليها من الاستفهام بـــ(كيف)، وإيثار (كيف) هنا للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه»[1].

إنَّ إيراد المعنى في سياق التمثيل يأتي ضرورة يقتضيها المقام، فالتمثيل أقرب من إلى الذهن مما لو جرى على طرائق أخرى، وادعاؤنا هذا يأتي من كون التمثيل يحتمل تأويلات كثيرة، وانَّه أدعى لعلاقات الحضور والغياب في السياق ويفسح مجالاً للمتلقي كي يحضر بذهنه لإنتاج دلالات التركيب

(١) التحرير والتنوير: ٢٢٣/١٣.

إنتاجاً يناسب المقام الذي وردت فيه، ولاسيما أن المقام هنا مقام تفكري يقوم على سرد بياني بين طرفين يعرضهما تمثيلا وهما: (الشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة) اللتان يعبر بهما عن حقائق إيمانية وعقدية ولها تعالقات أخلاقية واجتماعية، ومن خلالهما يقف المتلقي ليمحص دلالة السياق فيدرك الأبعاد التي يشتمل عليها ذلك السياق والمضامين الجمالية فيه.

لقد تأول المفسرون الكلمة الطيبة على أنَّها الإيمانَ به بالله تعالى، والإيمان كأنَّه شجرة طَيّبة الثمرة، فترك ذكر الثمرة، استغناء بمعرفة السَّامعين عن ذكرها بذكر الشَّجرة،، وهذه الشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء[1]، وقوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، أي: «النافعة، استعير الطيب للنفع لحُسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكية والفَرع: ما امتد من الشيء وعَلا، مشتق من الافتراع وهو الاعتلاء، وفرع الشجرة غصنها، وأصل الشجرة: جذرها، والسماء مستعمل في الارتفاع، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر، والأُكْل بضم الهمزة المأكول، وإضافته إلى ضمير الشجرة على معنى اللام»[2]، وهذا التشبيه يوحي بمعان نفسية حاصلة من خلال المشبه (الشجرة) في تحولاته في النمو وتعالي فروعها، «فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس والفرح في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رُسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثِمار ومتعة أكلها، وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلاً لجمع التشبيه وتفريقه»[3]، ثم إنَّ

(١) ينظر: جامع البيان: ٥٦٧/١٦، والبحر المحيط: ٤٣١/٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣ /٢٢٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢٤/١٣.

وصفها متنامية الأغصان مرتفعة الفروع فيه دلالة على ثبات الأصل ورسوخ العروق هكذا في الهواء لا مسندة إلا على نفسها والمعنى: راسخ باق آمن من الانقطاع والزوال والفناء، لأنَّ الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه، إلا أنَّه يعظم لحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنَّه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به»[1]، والمؤمن لرسوخ الأيمان فيه وحسن عمله الصالح فإنه سيُسر به حين الجزاء وإتمام الجزاء.

ويذكر، أنه وصف الأصل ثابت ولم يذكر الشجرة، كأن يقول: (شجرة ثابتة)، ولو وصفت بالثبات دون أصلها لفاتت التفاتة رائعة، لم يلتفت إليها أحد من المفسرين، لأنَّ كل شيء فيه ثقل إذا طرح على الأرض، كان ثابتاً قاراً عليها، ولذا وصف أصل الشجرة دون الشجرة، وفي ذلك وصف للإدامة والاستمرارية في إثمارها، فالوصف تعبيرا عن دوام البقاء مع الإثمار والإنبات، حين تبقى جذورها ثابتة ضاربة في الأرض، متمكنة من أسباب الحياة والبقاء والنماء المتواصل[2].

وما يمكن للمتلقي الوقوف عليه من هذا التصوير في المستند إلى التشبيه والتمثيل الحركي المتدرج، أنَّ هذه الشجرة قد تهيأ لها سبل النمو والرواء والتربة الخصبة والسقي المنتظم، فصارت ترتفع شيئا فشيئا حتى ضربت جذورها في أرضها الطاهرة مسافة واسعة، ثم نمت أصولها فتطاولت وارتفعت فروعها حتى كادت تقارب عنان السماء، ثم صار ثمرها دائم، فهي تؤتيه للناس كل حين ولا تقف عند مدة زمنية أو فصل ما وذلك بإذن ربها، فكان

---

(١) التفسير الكبير: /٨٩-٩٠.

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القران الحكيم ١٧٨/٢.

التشبيه بين الطرفين يتقارب من حيث ما يترتب عليها من الآثار النافعة، والمنافع الجمَّة، التي تعرف بسعي المؤمن بالله تعالى وبعمله الصالح.

ومن أهم ما يلفت في السياق أنَّه يجعل لهذه الشجرة صورة أخرى تقابلها عكسيا في الدلالة والنوع والسعي بالنسبة بالمشبه، فقابل الشجرة الطيبة الشجرة الخبيثة، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾، المراد بها: الشِّركَ بالله، أو المشرك نفسه[1]، وذلك أنَّ الخبث ألصق به ولغلبة الخبث على عمله، فالمؤمن يغلب على عمله الصلاح والمشرك يغلب على عمله الخبث، فكان التشبيه أقرب إلى الحالة العالمة فيهما، فالقرآن الكريم حين يأتي بالشجرة الطيبة مثلا لكلمة التوحيد أو للمؤمن في كثرة عطاءه، يكون الذهن قد أدرك الفكرة التي أراد إيصالها وهي أن المشرك في حالة معاكسة لحالة المؤمن، فالشجرة الطيبة تحيل إلى معاني العطاء المستمر، ولذة الثمر وكذلك الإيمان، فالمؤمن عمله طيب وقوله طيب، والمشرك يتملاه الخبث والفجور في سائر الأحوال، جاء في صحيح الجامع للترمذي من حديث أنس أنَّه قال: «أُتِيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِقِنَاعٍ عَلَيْهِ رُطَبٌ فَقَالَ: مَثَلُ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، قَالَ هِيَ النَّخْلَةُ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، قَالَ هِيَ الْحَنْظَلُ»[2]، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الكافر أو المشرك لا يقبل له عمل عمله، ولا يصعد إلى الله تعالى، إذ ليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء ولأصله فشبه

(١) جامع البيان: ٥٨٣/١٦.

(٢) سنن الترمذي: باب ومن سورة إبراهيم عليه السلام: والحديث برقم ٣١١٩.

بذلك المشرك الذي يتقلب من حال لآخر ولا يهتدي إلى الحق سبيلاً، ولا يعرف إلى الخير طريقاً، فهو شر كله، اعتقاداً وفكراً، وسلوكاً وأخلاقاً، وتطلعاً وهمة «وشتَّان بين هاتين الشجرتين والأولى حمل الكلمة الطيبة على جنس الكلام الطيب، والكلمة الخبيثة على جنس الكلام الخبيث لا أن تخص الأولى بكلمة التوحيد، والثانية بكلمة الكفر، ولا مانع أن تكون كلمة التوحيد أصلاً في الكلمة الطيبة، وكلمة الكفر أصلاً في كل كلام خبيث، والتشبيه في الصورتين تشبيه مفرد وهو (الكلمة الطيبة) في الأولى و(الكلمة الخبيثة) في الثانية بمركب وهذا ظاهر، أما في الثانية فالوجه عدم ترتب آثار نافعة في كُلٍّ؛ وإن كان أثر الكلمة الخبيثة هو إدخال قائلها النار»[1]، فتشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة يأتي على الضد في تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة من حيث جميع الصفات التي تشتمل عليها، أي: «من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدر التفكير، والضر المتعاقب، وقد اختصر فيها التمثيل اختصاراً اكتفاءً بالمضاد، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيبة،... وجملة ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ صفة للشجرة الخبيثة، لأنَّ الناس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها، والاجتثاث: قطع الشيء كلّه، مشتق من الجُثة وهي الذات، و﴿فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ تصوير لفعل الاجتثاث، وهذا مقابل قوله في صفة الشجرة الطيبة ﴿طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٌ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وجملة ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، تأكيد لمعنى الاجتثاث؛ لأنَّ الاجتثاث من انعدام القرار»[2]، والمراد هو إظهار المقابلة بين الحالين أمام المتلقي بتمثيل كل حالة على حـــدة

(١) خصائص الأسلوب: ٢/٢٣٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٣/٢٢٤- ٢٢٥.

بخلاف فيستحضر بذهنه ما يرمي إليه السياق من دلالات خافية وأسرار بيانية اشتمل عليها التصوير، ولذلك قال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وذلك لغرض إفهام الدلالة في السياق وتصويرا للمعاني التي تضمنها، وهذا يسهم في ترسيخ دلالة الصورة في الذهن وأدعى إلى تحقق المعاني المتداعية عبر التصوير الحسي للمعنويات، «لأنَّ المعاني الصرفة إذا ذكر مناسبها من المحسوسات ارتسمت في الحس والخيال والوهم، وتصورت فتركت هذه القوى المنازعة فيها، فيحصل الفهم التام والوصول إلى المطلوب، أي ليكون حالهم حال من يرجى له غاية التذكر بما أشار إليه الإظهار»[1].

إنَّ السياق الذي اشتمل على هذه المعاني يُفهم منه أنَّه يرمي إلى تحقيق غايته في تحريك الذهن حين يبين أحوال الطرفين فهو يرغب بالكلمة الطيبة، ويجسّمها في صورة الشجرة الطيبة القوية الجذور في الأرض، والباسقة الفروع في السماء، والدانية الثمار والعطاء، تقابلها صورة أخرى للكلمة الخبيثة، فيجسّمها في صورة شجرة خبيثة مجتثه من فوق الأرض، فليس لها جذور ثابتة، ولا فروع باسقة ولا ثمار يانعة، والفوارق كبيرة بين الصورتين المتقابلتين، كالفوارق الجوهرية بين الكلمة الطيّبة والخبيثة ويطول تصوير الشجرة الطيبة، لإبراز محاسنها، وجمالها، الذي يشمل الجذور والفروع، أو الباطن والظاهر، وآثارها الدائمة في الثمار الدانية من القطوف، كآثار الكلمة الطيبة الدائمة، وجمالها في روح الإنسان وسلوكه، أما تصوير الشجرة الخبيثة فجاء موجزاً سريعاً، اكتفى باجتثاثها من فوق الأرض، وترك بقية التفصيلات للخيال كي يستحضر عناصر التصوير ويكملها[2]، وهذا الوصف يجعل

---

(١) نظم الدرر: ٤/١٨٤.

(٢) ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٧٣.

الذهن يجوب مساحات كبيرة في التخييل للإحاطة بهذه الشجرة، ومدى حجمها التي لم يعهد لها مثيل ولا لهيئتها وصفاً مقارباً، إذ هي ليست من شجر الدنيا حين لم تتصف بأحدها، فتتم العضة والعبرة في التصوير المثلي، أنَّ المؤمن في الأرض وعمله الصالح مرفوع إلى السماء طيباً مباركاً.

☒ سياق تصوير عبد في ملك غيره:

وهكذا تجد أنَّ التعبير القرآني يتيح مجالاً واسعاً لحضور الذهن بين طيات سياقاته التصويرية التمثيلية فيستجلي الدلالات التي يشتمل عليها التصوير ويقف الذهن على اثبات ما استدعى التعبير لضرب المثل ما تقارب بين الطرفين فاقضى الإيجاز بالتمثيل ويترك للمتلقي إدراك التفاصيل الاخرى، ولا سيما حين يعرض طرفين مختلفين فيوازن بينهما ترغيبا وتنفيرا، فوصف المثل في التعبير أنه أعون شيء على البيان[1]، لما يشتمل عليه من فسحة كبيرة تتيح للمتلقي إبراز الدلالات التي يتضمنها إيجاز لفظه وطرائق نظمه المتنوعة، قال ابن الأثير: «فلمَّا كانت الأمثال كالرموز والإشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحاً، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً، ومن أجل ذلك قيل في حد المثل: إنَّه القول الوجيز المرسَل ليعمل عليه، وحيث هي بهذه المثابة، فلا ينبغي الإخلال بمعرفتها»[2]، فأمثال القرآن الكريم تقدم مادة خصبة للمتلقي ليغرس في نواحيها ما نتج عن تأملاته لسياقاتها التركيبة، ومن ذلك ايضا قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٤٩/١.

(٢) المثل السائر: ٥٥/١.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

إن هذا البيان التمثيلي يضع المتلقي بين نمطين بشريين ووصفين ماديين معهود أمرهما ومشاهد، فثمة رجلين أحدهما: ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، أي: قد انتفت من الفائدة في القيام بأمر ما، أذ إنَّ صفة البكم أحالت بين فهمه وإدراكه لما هو مطلوب منه، ثم ذكر عيباً آخر فيه زيادة على الأول: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾، أي: «ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله، ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ﴾، حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية منهم لم ينفع ولم يأت بنجح»[1]، وهذه الصفات الثلاثة تشكل عائقاً كبيراً أمام تحقيق غاية حين يدعى أو يطلب أو يرجى في قضاء أمر ما، بل أنَّ من يطلب دعواه ويكلفه فيه دلالة على غبائه وبيان سفه عقله، فهو لم يحسن تدبير أمره ولم يقض لنفسه حاجة، فكيف يقضي لغيره، وهذا التعبير يشكل خطابا يلامس العادات التي أعتادها العرب وواقعهم المعاش آنذاك، فقد كان العرب قديماً لهم عبيد يقومون على رعاية أسيادهم، ولا يملكون شيئا ولو حتى انفسهم، بل وليس لهم حرية التصرف فيها، ولا القدرة على فعل شيء إلا حين يرجعون إلى أسيادهم.

ثم ذكر الصنف الآخر: ﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، فمن صفاته قيامه على العدل منكرا غيره، فكان حاله ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وهو كناية عن البيان الذي اشتمل على وصفه الكامل في سعيه ومقامه، فاستقامته على العدل والمعروف أورثته استقامة منحته رفعة واعتلاء على غيره.

---

(١) تفسير النسفي: ٢/٢٤٥.

لقد ورد في هذا التركيب السياقي مثلان كل واحد منهما يمثل طرفا مختلفا عن الآخر وكلاهما يشكل وصفاً بيانياً يعرف بطبيعتهما، ولكي يسهم في جعل مدخلاً للذهن يفصل بينهما قال ﷻ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾، وهذا التوظيف للأسلوب الإستفهامي هنا يخرِج المثل إلى مرجعيات ذهنية ليقارن بينهما ثم يسحبهما إلى حيث مساحة التأويل الذي تتماشى مع الغايات والمقاصد العقدية والخلقية التي يشتمل عليها القرآن الكريم.

لا يخفى أنَّ لسياقات التمثيل فوائد جمة في البيان الوصفي، قد ذكر أبو السعود: «التمثيلَ ألطفُ ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل واستنزالِه من مقام الاستعصاء عليه وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامع الآبي كيف لا وهو رفعُ الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف والمَثَل في الأصل بمعنى المِثْل والنظير يقال مِثْل ومَثَل ومثيل كشبْه وشَبَه وشبيه ثم أطلق على القول السائر الذي يُمثّل مضرِبُه بمورده وحيثُ لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً فيه غرابةٌ صيَّرتْه جديراً بالتسيير في البلاد وخليقاً بالقبول فيما بين كل حاضرٍ وباد استعير لكل حال أو صفةٍ أو قصة لها شأن عجيب وخطرٌ غريب من غير أن يلاحَظ بينها وبين شيءٍ آخرَ تشبيهٌ ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾، أي الوصفُ الذي له شأن عظيم وخطر جليل»[1]، فهو دعوة لحضور الذهن الفاحص ليملاء على التعبير ما يسمح من معان تنوعت مستوياتها ورمت بها إلى أبعاد أخرى يخرجها المتلقي ويرسمها بريشة حسه التأويلي وتذوقه الجمالي للسرد المعروض مثلاً، فما يرمي

(١) إرشاد العقل السليم: ١/٥٠.

به السياق هو «تَمْثِيلٌ لِلإِشْرَاكِ بِاللَّه وَالتَّشْبِيه به، لأَنَّ مَنْ يَضْرِبُ الأَمْثَالَ مُشَبِّهٌ حَالاً بِحَال... ومُنَاسَبَةُ ضَرْبِ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى ضَلالَهُمْ فِي إِشْرَاكِهِمْ بِاللَّه غَيْرَهُ وَهُوَ لا يَجْلِبُ نَفْعاً وَلا ضَرّاً لِنَفْسِه وَلا لِعَابِده، ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً قِصَّةَ عَبْد فِي مِلْكِ غَيْرِه، عَاجِزٍ عَنِ التَّصَرُّف، وَحُرٍّ غَنِيٍّ مُتَصَرِّف فِيمَا آتَاهُ اللَّهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَانِ لا يَسْتَوِيَانِ عِنْدَكُمْ مَعَ كَوْنِهِمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِد، وَمُشْتَرِكَيْنِ فِي الإِنْسَانِيَّة، فَكَيْفَ تُشْرِكُونَ بِاللَّه وَتُسَوُّونَ به من مَخْلُوقٍ لَهُ مَقْهُورٌ بِقُدْرَتِه مِنْ آدَمِيٍّ وَغَيْرِه، مَعَ تَبَايُنِ الأَوْصَاف. وَأَنَّ مُوجِدَ الْوُجُودِ لا يُمْكِنُ أَنْ يُشْبِهَهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِه، وَلا يُمْكِنَ لِعَاقِلٍ أَنْ يُشَبِّهَ بِه غَيْرَهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا مَثَلٌ لِلَّه وَلِلأَصْنَام، وَقَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فَالْكَافِرُ الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ لا يَنْتَفِعُ بِعِبَادَتِه فِي الآخِرَة، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ الْمُؤْمِنُ. وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: مَثَلٌ لِلْبَخِيلِ وَالسَّخِيِّ»[1]، فالتعبير يجر إلى الصراع العقدي المستمر بين الإيمان والكفر، وما لهذا الصراع من أهمية على مستويات كثيرة في المعاش والحياة، ذكر الزمخشري: «وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع وقرىء: (أينما يوجه)، بمعنى أينما يتوجه، من قولهم: أينما أوجه ألق سعداً»[2]، إشارة إلى ما يجره المعتقد الفاسد والفكر الضال على الأفراد والمجتمعات التي تتوجه بالعبادة إلى الاصنام والأحجار التي أشار اليها بعبد أبكم لانفع من ولا يتقن عملاً، وأشار إلى المسلك الصحيح بما يشاكله، فرسم له صورة شخص يمشي على طريق مستقيم ويسلك سبل

---

(١) البحر المحيط: ٥٦٩/٦.

(٢) الكشاف: ٥٨٢/٢.

المعروف فهدي إلى الاستقامة، والمتوقع من ذلك ان يسير الأول بضلاله إلى مواطن الهلاك ويسير الثاني إلى مواطن النجاة، وكلاهما بحسب مسلكه ومعتقده، «فهذا المثل هو حجة أخرى بيّنها الله تعالى لإبطال الشرك، وأن التسوية بين الكامل والناقص غير صحيحة في دلالة العقول. بيان الحجة التي دلَّ عليها المثل: تدور تفاسير أهل العلم لهذا المثل على أنه يتضمن الاحتجاج على المشركين بنظر العقول الصحيحة التي تحكم ببطلان التسوية بين الكامل الذي يتكلم ويدل على الخير وهو مستقيم على الحق لا يزول عنه، وبين الناقص الأبكم الذي لا يأتي بخير، وبذلك يبطل ما يزعمه المشركون»[1]، فالمثل يحيل المعنى إلى أبعاد نفسية وحالة الضجر والتعب حين يوكل الأمور إلى ذلك الموجود الحجري الذي لايملك لنفسه نفعا، كعبد مملوك كَلاًّ على سيده، وحالة الراحة والطمأنينة التي يشعر بها المؤمن حين يسلم أمره لخالقه ومدبر أمره، كعبد سار في طريق مستقيم وارتضى كل حادث له مادام في رضاه سبحانه وواقع تحت إرادته.

إنَّ مدار التصوير هو بيان امتناع التسوية بين الطرفين، إنَّ التسوية بين الله تعالى والأصنام حين جعلت آلهة تعبد مع الله تعالى لله أمر يبعث في النفس حالة ساخرة من سفه عقول هؤلاء فكيف يستوي هذا الأبكم الكَلّ على مولاه، الذي لا يأتي بخير حيث توجه، ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحق، ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته فلا مساواة بين العاجز والقادر المقتدر، لأنَّ حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء، وحاصل أوصاف الثاني أنَّه مستحق أكمل استحقاق،

(١) الأمثال القرآنية القياسية: ٢٩٧/٥.

والمقصود الاستدلال بعدم تساوي هذين المذكورين على امتناع التساوي بينه سبحانه وما يجعلونه شريكاً له[1]، فسوق المثل هنا يأتي بياناً وصفياً «للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة»[2]، فالمؤمن يرفض أمر التسوية بأي حال من الأحوال، ويخرج بقراءة متذوقة لحلاوة أيمانه ليحكم بعدم التسوية بين في أمر الإلوهية واستحقاق العبادة وأنَّ إله تعالى أولى بهذا الحكم، لأنَّ الفرق بينه وبين تلك الأصنام أعظم مما بين المخلوق والمخلوق ممن ذكرت أوصافهما هنا وبذلك يبطل الشرك الذي يتلبسون به، ويبطل كل دعاء متضمنا إشارة لغيره سبحانه، إذن فالمثلان «متضمنان قياسين من قياس العكس وهو نفى الحكم لنفي علته وموجبه فإنَّ القياس نوعان قياس طرد يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علَّة الأصل فيه وقياس عكس يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان فالله سبحانه هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً ليلاً ونهاراً يمينه ملآى، لا تغضيها نفقة سحاء الليل والنهار والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء فكيف تجعلونها شركاء لي وتعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين»[3].

هكذا يمكن القول بأن التصوير في هذا المثل يركّز على أن المؤمنين في معتقدهم هذا لا يسوون في حياتهم بين عبد مملوك لا يقدر على شيء، وبين سيّد حرّ عاقل مدرك مالك متصرف في أمواله من ذلك؛ إذ كيف يسوّى بين

---

(١) ينظر: فتح القدير: ٢١٨/٣.

(٢) صفوة التفاسير: ١٢٦/٢.

(٣) الأمثال في القران الكريم: ٢١.

العبد المملوك، والحرّ الطليق، و المشركين يرضون بالتسوية بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد من عبيده أو شيء آخر مما خلق، وهذا تناقض بيّن، لا يقول به العقلاء، كذلك يركّز على أنهم أيضا لا يسوون في حياتهم بين رجل أبكم ضعيف بليد، لا يعود بخير، وبين رجل عاقل حصيف متكلم آمر بالعدل مستقيم على طريق الخير، ولكنهم يرضون بالتسوية بين الله ﷻ وهذه الأصنام الجامدة البكم، فالمثلان يقيمان الأدلة والبراهين على عقيدة التوحيد، من واقع حياة العرب آنذاك، ويظهران تناقض المشركين في تصوراتهم واعتقاداتهم، والفرق كبير بين عبد مملوك لشركاء عدة، كل واحد يأمره بأمر، وهو موزّع بين أسياده المتخاصمين عليه، لا يدري كيف يرضي هؤلاء المتخاصمين جميعا، لذا فهو يعيش في قلق وحيرة وعذاب، وعبد آخر مملوك لسيد واحد، يتلقى منه أوامره، وينفذها، ويعرف ما يريده منه وما لا يريده، لذا فهو يعيش في توازن ووضوح[1].

☒ سياق تصوير حالة المؤمن الموحّد لله والمشرك الكافر به:

فهمنا أن الصور التي تخاطب الذهن تكوّن صوراً جديدة بإغنائها السياق ورفده بدلالات متنوعة كما مرَّ بنا قبل قليل، والاشارة هنا إلى أن الصور التي تقوم على رسم ملامح كلّ من المؤمنين والكافرين وتجسيدها بمعالم أخرى، هي صور تأتي بوظائف إيضاحية وبيان الفوارق الجوهرية بين الطرفين في أطارهما العام اعتقاداً وسلوكاً، كما أن أنساقها التعبيرية تكون متفاعلة معها وتجعل للمتلقي فجوات وبؤرتشكل مدخلاً مهماً لإنتاج السياق والتعريف بروابطع وعلائقه الفكرية، قريب من النص السابق قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ١٧٥.

مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

ففي هذا السياق المثلي يبرز قطبا الصورة (المؤمن الموحد، المشرك الكافر)، فالمؤمن يعبد إلها واحدا وامتثل لأمره وسلم له واتقاد جميع أحواله، لأنَّه اعتقد بربوبيته ورعاية مصالحه فامتثل لأمره بمعرفة طريق في رضاه، والكافر لم مقاصده شتى وتخالطت عليه أصناف العباد وتنازعت فيه الأنفس الأخرى وهو ممتثل في أي حال، لأنَّ أمره ليس إليه أنَّما لمن يملكه، وإن كان على أي ملة ومعتقد فهو مملوك له مختلف إليه في جميع أحواله مطيع، ثم إذا أخلفه لغيره تخلّف من غير إرادة، فالصورة تقارن بين طرفين: «بين من لم يتخذ مع الله شريكا فهو لا يبغي الخير ولا يتقي الضرّ إلّا من قبله، ومن ثم فهو لا يسعى لإرضاء غيره، ومن اتخذ مع الله شركاء له فقلبه أوزاع بينهم، وهم فيما بينهم متشاكسون متنافسون على مكاسب الإلوهية ومقتضياتها، فهو لا يدري بأيّهم يربط قلبه ولأيّهم يعطي ولاءه، ولكن هذا المعنى المقصود مطوي في المثال الذي ضربه الله تعالى، وهو مثال رجلين أحدهما يتعلق به شركاء متشاكسون متنافسون كلّ يدّعي انفراده بالسلطان الكامل عليه، والآخر موصول الولاء بشخص واحد فهو سلّم له ومسؤول تجاهه»[1]، زيادة على أن المثل قد ضُرب لمن يُثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ثم ينافسوا ويتغالبوا حتى يبقى في حَيرَة من أمره وشك يلازمه أبداً، لا يدرى من يعبد أو على من يعتمد أو ممن يطلب رزقه، فهل يستوي حال هذا الحائر مع حال مَن يُثبت

(١) من روائع القرآن: ١٨٣.

إلهاً واحداً قائم بما كلفه به، يعرف ما يرضيه وما يسخطه، فههنا اضطراب وقلق وحيرة وتشتت وضعف وعجز، وذلك مثل الكافر عقيدة ومعتمد عقيدة أخرى[1]، والصورة تخاطب الذهن المتبصر لاستدعاء هذه المعاني، عبر علاقات الحضور والغياب، فيسترشد إلى المقصد البياني في التعبير.

ويأتي إيراد هذا المثل لبيان الحكمة وإثباتها في ذهن المتلقي أو المخاطب، فالغاية الكامنة عرض هذه الصورة هي «التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى، والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها»[2]، وهذا يتناسب مع ما يرمي إليه ظلال السورة كلها في بيان جانب حقيقة التوحيد التي وترمي أن تطبعها في القلب وتمكنه فيه، فاشتمل المثل على توجيهات وإيحاءات لإيقاظ هذا القلب واستجاشته وإثارة حساسيته، وإرهافه للتلقي والتأثر والاستجابة، ولاسيما إنَّ سياقها يطوّف بالقلب البشري هناك في كل شوط من أشواطها القصيرة ويعيش به في ظلال العالم الآخر، وهذا هو مجال العرض الأول فيها والمؤثر البارز المتكرر في ثناياها، ومن ثم تتلاحق فيها مشاهد القيامة أو الإشارة إليها في كل مقطع من مقاطعها الكثيرة، لإثبات تلك الحقيقة ليتوجه الخلق نحو هذه الحقيقة وترك ما سواها من مظاهر لا تمثل الحقيقة بحال[3].

إنَّ وصف الطرف الأول بـــ(الشكس) الوارد في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، يمثل الطرف الذي ظهر بمظهر المتحير

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/٢١٧.
(٢) روح المعاني: ٢٣/٢٦٢.
(٣) ينظر: في ظلال القرآن: مج٥ /ج٢٣/٣٠٤٩.

الضائع، والذي تلاعبت به مشاعر الخوف والخشية حين تشتت بين أطراف عدّة قد تنافسوه وتنازعوه مختلفين متضادين فلا يدري ما هو صانع، والمعنى: «متشاجرون لِشكَاسَةِ خلقهم، والتشاكس التخالف، وأصله سوء الخلق وعسره، وهو سبب التخالف والتشاجر، ويقال التشاخس بالخاء المعجمة، قال الفراء: أي: مختلفون، وقيل: متنازعون، وقال المبرد: متعاسرون من شكس يشكس شكساً فهو شكس، مثل عسر يعسر عسراً فهو عسر، وشكس بكسر الكاف هو القياس، قال الجوهري: التشاكس الاختلاف، ويقال: رجل شكس بالتسكين أي: صعب الخلق، وهذا مثل من أشرك بالله وعبد آلهة كثيرة »[1]، وأصل الشكس هو إساءة الخلق وفساد السلوك[2].

ثم ذكر الطرف الآخر الموصف بالسلامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، وهذا الوصف يرفد النفس بمشاعر الراحة والطمأنينة حين تخلص إلى طرف واحد وتجعل الفكر والجهد إليه وحده بمعنى خالصاً له في جميع أحواله، فالسياق يبرز خطاباً مباشراً، أي: «قل لهم ما يقولون في رجل من الممالك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، وكل واحد منهم يدعي أنَّه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم وهو متحير في أمر، فكلما أرضى احدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه وأيهم يعينه في حاجته فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته،

---

(١) فتح البيان: ١١٠/١٢.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (شكس).

فأي هذين أحسن حالا واحمد شأنا، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإنَّ تلك الآلهة تكون متنازعة متعالية، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقة فَهمُهُ شعاع وقلبه أو زاع، وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه»[1]، فالمعنى فيه خطابية مباشرة وبيان تصويري يرشد إلى إعمال الذهن في تمثيل هذه الصورة لتقليبها معناها في الذهن، فالشمولية الدلالية في الخطاب السياقي تخرج إلى ضرب مثل في رجل مملوك اشترك فيه شركاء مختلفين كل يدعي أنه عبده وهم يتجاذبونه في أعمال شتى، وهو متحير لا يدري من يرضي بخدمته ولا على أيهم يعتمد، وفي رجل آخر مملوك قد سلم لمالك واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وهذا الآخر يعين خادمه على حاجاته ويقدم له المعونة، وهكذا يبقى هذا التنازع مستمر فينتهي مورد التشاكس إلى الهلاك، وينتهي مورد السلامة إلى النجاة بما أبصر من معالم الحقائق الثابتة والدلائل الواضحة.

ويلاحظ أن سياق التصوير يراعي الحالة الذهنية ويعطيها مكانة واضحة لأدراك المعنى، فحتى يلفت المتلقي إلى الصورتين المعروضتين أنهى ذلك السياق بتساؤل: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾، وما يشكل هذا الأسلوب من وقفة ذهنية

(١) الكشاف: ١٢٨/٤.

تأملية تشد المتلقي إلى التصوير، وتجعله يغور في أعماق كل طرف ويقلب الصورتين في فكره وخياله ليسترشد إلى هدى، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً، والمعنى يجر إلى وصف حال المؤمن وحال الكافر وما بينهما من فوارق فكرية وعقدية، فهما لا يستويان بحال، فالاستفهام يستنكر على الكافرين تشتتهم إلى آلهة عدة، ويرغب بالمؤمن حين يعتمد على ربه ﷻ ويلجأ إليه ويصرف إليه العبادة، لذا فقد شكل السياق مدحا وثناء في خاتمته، بعد بيان هذا التفاوت بين الطرفين فأوجب الحمد إليه لمن فقه هذا وسار إلى طلبه واستنكر المعبودين غير واستبعده؛ إذ هو غاية الوجود، قال الآلوسي: «ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته، عبداً يتشارك فيه جملة مشاجرون لشكاسة أخلاقهم وسوء طبائعهم يتجاذبونه ويتعاورونه مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه، ورجلاً أي وضرب للموحد مثلاً رجلاً سلما أي: خالصا لرجل فرد ليس لغيره سبيل إليه أصلا فهو في راحة عن التحير وتوزع القلب وضرب الرجل مثلا؛ لأنه أفطن لما شقى به أو سعد فإن الصبي والمرأة قد يغفلان عن ذلك... هل يستويان مثلاً، إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفي له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأنَّ ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في لوم وعناء والآخر في راحة بال ورضاء وقيل ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين والآخر في أسفل سافلين، وأيا ما كان فالسر في إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور»[1]، وهذا يفهم أن المعنى الكامن في إيراد الاستفهام هنا

(١) روح المعاني: ٢٦٢/٢٣.

هو: «هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب، مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه، وإذا عصاه عفا عنه، فإنَّ بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما؛ لأنَّ أحدهما في أعلى المنازل، والآخر في أدناها، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل؛ لأنَّ الأصل هل يستوي مثلهما، أي: حالهما وصفتهما، وأفرد التمييز ولم يثنه؛ لأنَّ الأصل في التمييز الإفراد لكونه مبنياً للجنس، وقال: السمين وأفرد التمييز؛ لأنَّه مقتصر عليه أولاً في قوله ضرب الله مثلاً، وقرئ مثلين فطابق حالي الرجلين»[1]، والملاحظ أن إيراد الاستفهام جاء بهيئة الجمع، ولعل في ذلك تناسبا مع هؤلاء حين يصرفون العبادة إلى معبودات مختلفة متنوعة، فكلها لا تقدر على شيء، فهي مجموعة فيه على متنوعة مجتمعة على معنى التجرد من القدرة والإرادة، «وهذا تمثيل ثانٍ للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبّه، فاعتبر هنا المعنى الحاصل من حال الأبكم وهو العجز عن الإدراك وعن العمل، وتعذّر الفائدة منه في سائر أحواله؛ والمعنى الحاصل من حال الرجل الكامل العقل والنّطق في إدراكه الخيرَ وهديه إليه وإتقان عمله وعمل من يهديه، ضربه الله مثلاً لكماله وإرشاده الناس إلى الحقّ، ومثلاً للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضرّ... وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التّسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية

(١) فتح البيان: ١١١/١٢.

تفنّنا»[1]، فالمراد نفي التسوية الحاصلة بين الطرفين، ففي قوله: ﴿مَثَلًا﴾، إحالة إلى استحالة التمييز بينهما، أي: «هَلْ تَسْتَوِي صِفَتَاهُمَا وَحَالَتَاهُمَا، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ فِي التَّمْيِيزِ عَلَى الْوَاحِدِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ وَقُرِئَ (مَثَلَيْنِ)، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَمَّا بَطَلَ الْقَوْلُ بِإِثْبَاتِ الشُّرَكَاءِ وَالأَنْدَادِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْوَاحِدُ الأَحَدُ الْحَقُّ، ثَبَتَ أَنَّ الْحَمْدَ لَهُ لا لِغَيْرِهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أَيْ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَمْدَ لَهُ لا لِغَيْرِهِ، وَأَنَّ الْمُسْتَحِقَّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ لا غَيْرُهُ»[2].

إنَّ ما يقال أخيراً: أنَّ هذا المثل يشترك مع المثل السابق في خطاب الذهن لتوجيه الدلالة وإنتاج المعنى الوصفي، هو تتابعهما في العرض مع تباين في الأسلوب، فالدلالة العامة تبرز حالة الترغيب بعبادة الله تعالى وترك ما سواه، وهذا ليس من باب التكرار أنَّما من باب التفنن في عرض الفكرة الواحدة «لأنَّ تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ»[3]، وحتى التكرار في أسلوب القرآن الكريم لم يكن تكرار للحد إلى يقال أنَّه تكرار فحسب، فتكراره يخرج لإغناء السياق ورفده بمعالم غرائبية تثري ألفاظه وتراكيبه في الأحوال الوصفية المتنوعة، ونحن هنا ننفي التماثل الأسلوبي في عرض الأساليب البلاغية التي يبرزها البلغاء وأهل البيان، فالقرآن يضرب المثل مقرنه بالرجل على سائر أحول السرد الوصفي، ففيه أنَّ الرجل أصل في كل مثل معروض، ومنها التمثيلات المركبة، والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه «إنَّ التمثيلين جميعاً من جملة

(١) التحرير والتنوير: ١٤/٢٢٧.
(٢) التفسير الكبير: ٢٦/٤٥١.
(٣) التحرير والتنوير: ١٤/٢٢٧.

التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفصل والمذهب الجزل بيانه أنَّ العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها»[1].

تسجل أنماط التوظيف الكنائي في السياق القرآني حضوراً بارزاً للتلقي للذهني من خلال علاقات الحضور والغياب زيادة على فاعلية تدعي المعاني وهي خصيصة ذهنية ترتبط بالإشغال الفكري عند المتلقي فيربط بين المعاني المتنوعة استجابة لدواعي التعبير، فالكناية من حيث الأصل هي: «لفظ أُريدَ به لازم معناه مع جواز إرادة معناه»[2]، فالقدرة الإيحائية التي تعمد إليها أساليب الكناية فتجعلها أسلوبية ترتقي بالتعبير إلى مستوى عال من التصوير الذي ينفذ إلى الذهن بما يخفيه من معان وإشارات ورموز وأفكار تتدعى إلى الذهن ساعة التأمل.

☒ سياق التصوير تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر:

تستوجب تعبيرات الكناية حضور الذهن غالبا، ومرد ذلك جواز احتمال اللفظ فيها أن يكون متأت للحقيقة أو المجاز في حين أنَّ الأساليب البلاغية الأخرى في تجسيد الصور لا يراد منها إلا المعنى المجازي، ومن هنا كان لعملية التلقي الذهني في الكناية مساحة واسعة، لنقرأ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

(١) الكشاف: ١/١١٤.

(٢) الإيضاح: ٣٣٠.

عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٢-٤٣].

يلاحظ أنَّ الكناية التي تستحوذ على هذا المشهد تجعل من المشاهدة البصرية للفعل الذي يقوم به صاحب البستان فتلقي بظلالها على الحس والشعور الذهني على حد سواء، وهذا السياق هو تتمة لأحداث سابقة وحوار طويل بين طرفين متناقضين في التوجه العقدي، فثمة مؤمن مخلص ينظر إلى ما حوله على أنه يجري وفق تقدير الله تعالى وفقه الأخذ بالأسباب في إيجاد الأشياء، وآخر يتبختر برزقه ويتعالى ويسند ما يحصل عليه لنفسه وجهده، ولما كان من المعلوم أنَّ هذا المؤمن المخلص بعين الرضى، كان من المعلوم أنَّ التقدير: فاستجيب لهذا الرجل المؤمن، أو فحقق له ما توقعه فخيب ظن المشرك، فعطف عليه بفعل الإحاطة، أي: أوقعت الإحاطة الهلاك به، وبناء الفعل لمفعول لم يسمى فاعله، لأنَّ الفكر حاصل بإحاطة الهلاك من غير نظر إلى فاعل مخصوص للدلالة على سهولته، فاستؤصل البستان وهلك ما فيه من ثمر، فأصبح يُقلِّب كفيه تمنياً اعتماده على الله من غير إشراك بالاعتماد على ما أصله أن يكون فانياً[1].

ابتدأ السياق بفعل الإحاطة: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، والتعبير في شمولية في المعنى في الإحالة إلى المعاني المجازية المستدعية ذهنياً لتحضر بفاعليتها لتسهم في توافر رسم أبعاد الحدث، والإحاطة تقال على وجهين:

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٤/٤٧٠.

أحدهما: في الأجسام نحو: أَحَطْتُ بمكان كذا، و تستعمل في الحفظ نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، أي: حافظ له من جميع جهاته، وتستعمل في المنع نحو: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: إلّا أن تمنعوا، فذلك أبلغ استعارة، وذاك أنّ الإنسان إذا ارتكب ذنباً واستمرّ عليه استجرّه إلى معاودة ما هو أعظم منه، فلا يزال يرتقي حتى يطبع على قلبه، فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه. والاحتياط: استعمال ما فيه الحياطة، أي: الحفظ.

والثاني: في العلم نحو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، والإحاطة بالشيء علما هي أن تعلم وجوده وجنسه وقدره وكيفيّته، وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلّا لله تعالى[1]، فهي تكنية عن معاني الاستحاطة الشاملة بالمحاط مع التمكن فيه بالعلم والقدرة، فتجرد المُحاط به من جميع معاني التدبير والمنعة وانتفى عنه تصريف الأمور وتظهره مفتقراً لتدبير خالقه وطلب نجدنه وعونه، فالكناية بيان يدل على الأخذ من كل جانب، وهي صورة حربية مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه إذا غزاهم، والمعنى الذي خرجت إليه هو تلاشي ما يملك وضياعه هباء، أي: «أُتلف ماله كله بأن أُرسل على الجنة والزرع حُسبان من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه»[2]، فقيل (أحيط به) للتعبير عن إهلاكه، فدلالة الإحاطة تكون حين أحاط به فكأنَّه مَلكهُ واستولى عليه، فاستعمل في الإهلاك، والمعنى

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (حيط).

(٢) التحرير والتنوير: ٣٢٦/١٥.

العام فيها يحيل إلى أن المؤمن لما قدَّم النصح للكافر الذي أعجبه ملكه لم ينتصح فأخذ يكابر ويغالي بنفسه وبيان إمكاناته واسند إيجاد الملك لنفسه، فسلَّط الله تعالى على ملكه عذاباً فأحيط بجنتيه وثمرها أي: «أهلك أمواله المعهودة من جنته وما فيهما، وهو مأخوذ من إحاطة العدو وهي استدارته به من جميع جوانبه استعملت في الاستيلاء والغلبة ثم استعملت في كل هلاك»[1]، فالتعبير بالإحاطة «كناية عن عموم العذاب»[2]، فهو حين رأى جنتيه أهلكت ودمرت و لم يستطيع الدفاع عنهما وإعادتهما كما كانتا اكتفى بالندم على الأموال التي أنفقها عليهما، وكذلك بالندم على إشراكه بالله رب العالمين فأصبح يضرب إحدى يديه بالأخرى وهذا كناية عن الندم تأسفاً وتحسراً، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ﴾، أي: حين أحاط الهلاك بثمره، وهي صنوف ثمار جنته التي كان يقول عنها: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]، حتى أصبح بعدها يقلب كفيه ظهرا لبطن، تلهفا وأسفا على ذهاب نفقته التي أنفق في جنته، وهي خالية على نباتها وبيوتها، فصار يصفق متلهفا على ما فاته منها، يتمنى أنَّه لم يكن كان أشرك بربه أحدا، وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر، لأنّ النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كما كنَّى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنَّه في معنى الندم عدّى تعديته بـــ(على)، كأنَّه قيل: فأصبح يندم (عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا) أي: على ما أنفق في عمارتها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، يعني: أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الثمر، ذُكر

---

(١) روح المعاني: ٢٨٢/١٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٥٤٤/٣.

أَنَّهُ أرسل الله عليها ناراً فأكلتها، وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾، ندما على ما تذكر من موعظة أخيه فعلم أنَّه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه، ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما كان منه ودخولاً في الإيمان[1]، قال ابن عاشور: «وتقليب الكفين حركة يفعلها المتحسر، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته تحسراً على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنة، فهو كناية عن التحسر»[2].

إنَّ هذا الحدث له وقع ذهني ولا سيما أن المشاهدة الحسية للصورة هي التي دفعت الباعث الذهني في إدراك تلك المعاني فتلقيب الكفين جاء حين رأى بستانه خاوية، أي: «أنَّ السقوف وقعت وهي العروش ثم تهدمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على العروش»[3]، وحاصل هذه اللفظة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ كناية عن هلاكها التام، بعد أن كانت عامرة تؤتي ثمارها، ويريد بوصفها خاوية: «الخالية، أي وهي خالية من الشجر والزرع، والعُروش: السُقُف»[4]، وأصل الكلمة مستعمل من الخو والأصل فيه الخَوَاء أي: «الخلا، يقال خَوَى بطنه من الطعام يَخْوِي خَوًى، وخَوَى الجوز خَوًى تشبيها به، وخَوَتِ الدار تَخْوِي خَوَاءً، وخَوَى النجم وأَخْوَى: إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر، تشبيها بذلك، وأخوى أبلغ من خوى، كما أنَّ أسقى أبلغ من سقى. والتّخوية: ترك ما بين الشيئين خالياً»[5]، فالسياق الكنائي هنا يثير الذهن

---

(١) ينظر: الكشاف: ٦٧٦/٢.

(٢) المحرر الوجيز: ٥٤٤/٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٢٧/١٥.

(٤) المصدر نفسه: ٣٢٧/١٥.

(٥) المفردات في غريب القرآن: مادة (خوى).

لاستدعاء المعاني الدالة على وصف الحالة الكاملة وبيان الشارد عن ظاهر السياق، فإيراد هذا التركيب ليكون وصفاً عاماً ومثلاً بيانياً يدل على «الخرَاب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه، ومثله تقدم في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، على أن الضمير مراد به جدران القرية بقرينة مقابلته عروشها، إذ القرية هي المنازل المركبة من جدران وسُقف، ثم جعل ذلك مثلاً لكل هلاك تام لا تبقى معه بقية من الشيء الهالك» [(١)]، ففي هذا الجزء من التركيب من القصة –وهو الخلاصة فيها– يجعل من التصوير عملية ذهنية بحتة في بيان المعنى التام الكامن في سياق التركيب الكنائي، فقد أسهمت عملية التلقي الذهني في بيان ترابط السياق دلالياً في جميع الآيات مع ما قبلها وما بعدها لتوحي بالهدف الرئيس في ضرب المثل وتؤكد معناه في النفس، فلا يمكن التمسك، بمظاهر الزينة وحب الدنيا فذاك يؤدي إلى الكفر وهذه صورته، كما لا ينبغي التفريط في الحياة الدنيا لتكون طريقاً إلى رضا الله تعالى ودفع سخطه، إنَّما تُجعل موجودات الدنيا وما حُق التصرف في موجوداتها أن يكون على ما يرضيه، وما تشتمل عليه العبودية الخالصة له، ومن غير إشراك أحد معه فلا يطغى بها على الخلق، ونحن قد فهمنا أن صاحب البستان لم يكن ليحاط بثمره لكفره فقط «لأنَّ الله قد يمتع كافرين كثيرين طول حياتهم ويملي لهم ويسْتدرجهم، وإنَّما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى التكذيب بوعد الله استحق عقاب الله بسلب

(١) التحرير والتنوير: ٣٢٧/١٥.

تلك النعم عنه كما سلبت النعمة عن قارون حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة؛ لأنَّها تجمع قوماً يرونهم أحط منهم وطلبوا من النبي طردهم عن مجلسه كما تقدم»[1]، فيبقى للمتعظ أن يأخذ العبرة ويحسن إلى نفسه وغيره.

☒ سياق تصوير طعام أهل النار بشجرة الزقوم لقبحها وكراهة منظرها:

وتفسح بعض التعابير الوصفية مجالاً كبيراً للتخيل والإشغال الذهني حين حين تنقل المشبه إلى موجودات غير حسية أو غير مدركة بالحواس تبعا للدلالة التي جاء من أجلها الوصف نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٧].

يبرز السياق الوصفي هنا صورة الشجرة هذه المسماة بـ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، والتي جعلت ﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، والمتلقي يقف عند هذا الوصف يحاول رسم أبعاد تلك الشجرة في ذهنه فهو لم يرى رؤوس الشياطين حتى يعرف طبيعة تلك الشجرة وهيئتها، إنما استقر في ذهنة صورة مكروهة مذمومة هي صورة الشيطان، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ يريد به أنها: «تنبت في قَعْر جهنّم، وترتفع أغصانُها إلى دركاتها، وشَبَّه طَلْعَها برؤُوس الشياطين مبالغة في قبْحه

(١) التحرير والتنوير: ١٥/ ٣٢٨.

وكراهته، لأنه قد تقرر في نفوس الناس كراهتها، وإن لم يَرَوها، ولذلك يقولون لقبيح النظر: وجه شيطان»[1]، فهي ليست من الأشجار المعهودة تزرع وترعى وتسقى ثم تأتي أكلها بأطايب الثمر، «والمقصود منه هنا تقريب حال المشبّه فلا يمتنع كون المشبه به غير معروف ولا كون المشبه كذلك»[2]، وما لهذا الأسلوب الفاعلية شحذ الفكر ويقوي الروابط الشعورية بين الأجناس المختلفة في التكوين حين يشبه بعضهما ببعض وينقل أوصافهم لبعض، وما من شك أن ذلك له فوائد جَمَّة في التعبير فتتحقق الغرض وتدفع النفس إليه بشدة.

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ فهم يملأون بطونهم، لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإنكروها، ليكون باباً من العذاب، فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شراباً من غساق أو صديد وهو (الشوب) ومزاجه مِن حميم غاية في الحرارة، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم منه فهو حارّ يحرق الأمعاء وهم في كل حال يملؤن البطون منه، غير أنَّهم لا يسقونه إلا بعد ما يّتعذبون بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر، وهو ذلك الشراب المشوب الحميم[3].

فيلاحظ أنَّ الصورة التشبيهية من خلال هذا الوصف تأتي لتحريك الخيال ولربط الحالة النفسية المفزوعة أصلا من صورة الشيطان لتتناسب مع قباحة رؤوس الشياطين ثم زيادة في البشاعة أن تكون نابتة في أصل الجحيم،

---

(١) معترك الإقران: ٢٣٣/٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢٤/٢٣.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤٨/٤.

وهذا التعبير يشكل غرابة ترسخ معاني القباحة والكراهة منها «فالتناسب هنا بين الطرفين غير مدرك بالحواس، لأنَّنا لا نعرف شيئا عن هذه الشجرة الغريبة التي تنبت في أصل الجحيم، وطلعها كأنَّه رؤوس الشياطين، إنَّها شجرة مختلفة عن الأشجار الأخرى المعروفة، فهي شجرة غريبة ومنفّرة، فناسبتها صورة رؤوس الشياطين الغريبة والمنفرة أيضاً، ورؤوس الشياطين غير مدركة بالحواس ولكن ما ترسب في النفس من كراهيتها، والنفور منها عند الناس، جعلها صالحة للتشبيه بها فالتناسب هنا بين الطرفين تناسب نفسي، يستمد معينه من التخيل، والأثر النفسي الذي تتركه الصورة قوي الإيحاء عميق الدلالة»[1]، فالسياق يعطي للمتلقي فسحة واسعة لتصور هذا المعنى وإثباته في النفس، تبعاً لما ثبت فيها من بشاعة الصورة المرعبة المرسومة للشيطان فيها، زيادة على ذلك هو وضعها في الجحيم، والأصل أنَّ النار تحرق الشجر، فأنت تتخيل الشجرة وسط النار لا تحترق، مشهد يأخذ القلب ويرهب النفس، فهي بذلك تحقق الغرض الديني في بث معاني الاستنفار من أسباب الهلاك والآكل من تلك الشجرة، الدال على دخول جهنم وتذوق العذاب فيها.

وتسهم الكناية في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، في رفد الصورة بمعاني السخرية والتهكم فتجعلهم يقدمون إلى الشجرة مرغمين، فلم يكتفوا بأن يكونوا في جهنم معذبين بل تجدهم جياع عطاشى، فيأكلون منها حتى الشبع ويشربون بعدها، لكن أي أكل وأي شراب، قال بن عاشور: «وإسناد الأكل ومَلْءِ البطون إليهم إسناد حقيقي وإن كانوا مكرهين على ذلك الأكل والملء، والفاء في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ فاء التفريع،

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ٦٦.

وفيها معنى التعقيب، أي لا يلبثون أن تمتلئ بطونهم من سرعة الالتقام، وذلك تصوير لكراهتها فإنَّ الطعام الكريه كالدواء إذا تناوله آكله أسرع ببلعه وأعظم لقمه لئلا يستقر طعمه على آلة الذوق»[1].

☒ سياق تصوير الجبال بالهباء والفراش والعهن المنفوش بحسب مجيء سياقها:

ويمكن أن يقف المتلقي على مظاهر التصوير الذهني من خلال السياقات التصويرية المتجاورة أو التي تكمل بعضها بعضاً بإحالة بعض أجزاءها التصويرية إلى صورة أخرى في سياق آخر فتسهم في زيادة الإيحاء وإعمال الفكر لمعرفة ما تضمره تلك التعبيرات من معان متنوعة، كما في صور الجبال المبثوثة في سياقات مختلفة على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمّل: ١٤].

من المعلوم أنَّ الصورة تجسد حدثا كونيا مفزعا ارتبط وقوعه بذلك اليوم الموعود، وقد جاء البيان الوصفي للجبال بأنَّها ستكون ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، «والكثيب جمعه الكثبان، وهي القِطَع العظام من الرمل، ومعنى ﴿مَّهِيلًا﴾ سَائلاً قد سيلَ، وَأَصْل مَهيل مَهْيُول، يقال تراب مهيل وتراب مهيول أي: مَصْبُوب فسال، والأكثر مهيل، وإنَّما حذفت الواو لأنَّ الياء تحذف منها الضمة في مَهْيُول فتسكن هي والواو وتحذف الواو لالتقاء السَّاكنين»[2]، فهذه الصور تجعل الجبال أشبه بالموجود السائل المصبوب صباً أو السراب

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢٥/٢٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه (الزجاج): ٢٤٢/٥.

المتلاشي، وهذا الصورة غير معهودة أنَّما تعول على الإعمال الفكري في بيان القدرة المطلقة لله تعالى، وكذلك فهي تخاطب الذهن في عميلة التحول لإدراك هذا الحدث المعجز، فتنفذ إلى البصيرة مرتبطة بانسيابية السياق الذي وردة فيه، الذي يوحي بالتأني والتثقل.

ولو تتبعنا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨-١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤-٦]، وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩]، فسنجد أنَّ هذه السياقات وغيرها تبرز الأحوال المختلفة للجبال يوم القيامة، وهذا البيان المتنوع الملحوظ في الصور المتنوعة يشكل فاعلية في الإيحاء والتصور الذهني، فيدفعه إلى المقارنة بين هذه الصور في الدنيا، وصورتها التي ستحصل حين حلول القيامة وما يصاحبها من دمار وفناء، لتحقيق الأثر الديني المطلوب، ثم هو التصوير الإيهامي الذي يقرب الأحداث الغيبية إلى النفس بقوة التدعي للأفكار والمعاني التي يحتملها جو العرض المشهدي في السياق، توحي بالمظاهر المختلفة التي تظهر فيها الجبال في ذلك اليوم، والمهم الإشارة إليه هو أن كل مظهر قد ارتبط بالوصف الذي اقتضاه سياق الصورة فتتناسق معه، فمرة صوُر بالفراش المبثوث، فاقتضى ذلك وصف العهن بالمنفوش، وأخرى بصورة العهن بدون وصف فتتناسق مع صورة المهل، ومرة بصورة الهباء المنبث، وأخرى بالهَباء، دلالة على الزوال، وكل صورة تساير السياق العام في السورة الذي وردت

فيه، والجو الذي توحي به وهذا من باب البيان المتنوع في عرض الفكرة الواحد في سياقات متنوعة بحسب مقضى السياق الذي ورد فيه البعد الذهني فترسمه الصورة بالتخييل، وليست هو من باب التكرار للمعنى الذهني الواحد، وهذا خصوصيات التعبير القرآني التي يتفرد بها إعجازاً.

إنَّ عملية التصور الذهني تقع على مسافة بين المتلقي وبين أداة التصوير أو السياق المنطوق الذي يمكن أن فسح للفكر تحرّك الصور الذهنية في مخيلة المتلقي، ومن هنا تتسع مساحات الصور الذهنية لتشتمل على التعبير النفسي والتعبير الحسي فالتصوير في الأصل «إدراك حسي مسترجع»[1]، أي أنَّه يتقدم إلى الفكر بكل أدواته لإنتاج التعابير دلالياً، غير أنَّ سياقات التصوير القرآني متباينة في خطابها الحسي أو النفسية والذهني فهي متداخلة بشكل ضمني، والفصل بينهما يعد فتح أفق جديدة في أنتاج رؤية تنطلق من بؤرة دلالية معينة.

(١) مقدمة لدراسة الصورة الفنية: ٧١.